﴿۞وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٥٣﴾ [النور:53]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

أهلُ النِّفاقِ كَذَبَةٌ لا عهد لهم

لمّا ذكرَ اللّه تعالى أوّلًا إعراضَ المنافقين عن حُكم اللّه وحكم رسوله، وذكر ثانيًا موقفَ المؤمنين الطّائعين الذين ارتضوا حُكمَ اللّه وحكم رسوله، وأعلنوا له السَّمع والطّاعة، فكانوا مِن أهل الفلاح والفوز؛ عاد إلى الحديث عن المنافقين، ليكمل بيانَ أحوالهم؛ فهم يُقْسِمون على الأيمان المغلَّظة؛ لإعلان طاعتهم، وهم ليسوا كذلك؛ لنفاقهم وكذبهم، فأبان اللّهُ خسيسة أنفسهم، ودناءة طباعهم، وما هم عليه مِن كراهيَّتهم وبغضهم لرسول اللّه، وكذبَ دعواهم، وأنَّ المطلوب منهم - إن كانوا صادقين حقًّا - أن يُقِرّوا بطاعته متمثِّلين له صرفًا بألسنتهم، وتصديقًا بقلوبهم، ويقينًا بأفعالهم، والفعل والإيقان يُصدِّقان قول اللسان.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأَقۡسَمُواْ﴾: (قسم)، اليَمينُ القَسَمُ، وأقسم حلف، قالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: أَصْلُ ذَلِكَ مِنَ القَسامَةِ، وهيَ الأَيْمانُ تُقْسَمُ على أَوْلياءِ المَقْتولِ؛ إذا ادَّعَوا دَمَ مَقْتولِهم على ناسٍ اتَّهَموهُم به، ثم صار اسمًا لكلِّ حلف، قال: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ [الأنعام:109]، وقال: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ﴾ [الأعراف:49]، وقاسَمَهُ، وتَقاسَما، قال تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢١﴾ [الأعراف:21][1].

وقولُه: ﴿وَأَقۡسَمُواْ﴾: أي: نطقوا بالقَسَم، أي: اليمين.

2) ﴿جَهۡدَ﴾: (جهد) أَصْلُهُ المَشَقَّةُ، ثُمَّ يُحْمَلُ عليه ما يُقارِبُهُ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قسم)، والراغب، المفردات: (قسم).

يُقالُ: جَهَدْتُ نَفْسي، وأَجْهَدْتُ، والجُهْدُ الطّاقَةُ، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ [التوبة:79]، ويُقالُ: إنَّ المَجْهودَ اللَّبَنُ الَّذي أُخْرِجَ زُبْدُهُ، ولا يَكادُ ذَلِكَ يَكونُ إلّا بِمَشَقَّةٍ ونَصَبٍ"[1]، والجَهْد بالفتح: المشقَّة، والجُهْد: الوسع، وقيل: الجهدُ للإنسان، وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾، أي: حلفوا، واجتهدوا في الحلف أن يأتوا به على أبلغ ما في وسعهم، والاجتهادُ: أخْذُ النَّفسِ ببذل الطاقة وتحمُّل المشقَّة[2].

وقولُه: ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾، أي: إنَّهم أتعبوا أنفسهم، وشقوا عليها في الحلف بالإيمان؛ ليوهِموا سامعهم أنَّهم صادقون في أيمانهم.

3) ﴿مَّعْرُوفَةٌ﴾: (عرف) هذه المادَّة أَصْلانِ صَحيحانِ، يَدُلُّ أَحَدُهُما على تَتابُعِ الشَّيْءِ مُتَّصِلًا بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، والآخَرُ على السُّكونِ والطُّمَأْنينَة، فالأَوَّلُ العُرْفُ: عُرْفُ الفَرَسِ، وسُمِّيَ بِذَلِكَ لِتَتابُعِ الشَّعْرِ عليه، والأَصْلُ الآخَرُ المَعْرِفَةُ والعِرْفانُ، تَقولُ: عَرَفَ فُلانٌ فُلانًا عِرْفانًا ومَعْرِفَةً، وهَذا أَمرٌ مَعْروفٌ[3]، والمَعْرِفَةُ والعِرْفانُ: إدراكُ الشَّيءِ بتفكُّرٍ وتدبُّرٍ لأثره، وهو أخصُّ من العلم، ويضادُّهُ الإنكارُ[4].

وقوله: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾، أي: طاعةٌ مشهورة، وباردة مِن حرارة الإيمان الحيِّ الصادق.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

المنافقون مفضوحون لا محالة

أقسم هؤلاء المنافقون بالأيمان المغلَّظة الموثَّقة بأشدِّ وسائلِ التَّوثيقِ بأنَّهم متى أمرهم الرسول ﷺ بالخروج معه للجهاد ليخرجنَّ سراعًا؛ تلبيةً لأمره، وكذلك لو أمرهم بأيِّ شيء غيره؛ ليكونَنَّ منهم

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جهد).
(2) الراغب، المفردات: (جهد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرف).
(4) الراغب، المفردات: (عرف).

الاستجابة السريعة، ثمَّ أمره الله بالردِّ عليهم مكذِّبًا إيّاهم؛ تهكُّمًا وسخرية بهم، قائلًا: لا تقسموا على قولكم، فلو كنتم صادقين فيما تزعمونه فالطّاعة عملٌ وإيقان، وليس إطلاقًا باللسان، فطاعتكم طاعةٌ معروفة خالية مِن الإيمان.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواوِ في صدر الجملة:

نـظـامُ الآيـات لا يـخـلـو مِـن الـهـدايـات والإشارات

قولُه تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ معطوفٌ على قولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾، أُتْبِعَتْ حِكايَةُ قَوْلِهِم ذَلِكَ بِحِكايَةِ قَسَم أَقْسَموهُ بِالله؛ ليَتَنَصَّلوا مِنْ وصْمَةِ أَنْ يَكونَ إعْراضُهُم عَنِ الحُكومَةِ عِنْدَ الرَّسولِ ﷺ فجاؤوهُ، فأَقْسَموا بأَنَّهُم لا يُضْمِرونَ عِصْيانَهُ فيما يَقْضي به؛ فإنَّهُ لَوْ أَمَرَهُمُ الرَّسولُ بِأَشَقِّ شَيْءٍ - وهوَ الخُروجُ لِلْقِتالِ - لَأَطاعوهُ[1].

فهذا الإقسام متعلِّق بهذا الفريق المُتولِّي المُعرِض عن حكم رسولِ الله؛ إذا دُعي إليه، فالمتعاطفانِ حينئذٍ حديثٌ عن هذا الفريق مِن المنافقين، فبينهما توسُّطٌ بين الكمالين، وعلى ما سبق فالآيتان الحادية والخمسون والثانية والخمسون كالاعتراض بين آيات الحديث عن المنافقين، وإنَّما جيء بهما على سبيل الاعتراض؛ ليكون الحديثُ عن المؤمنين، كالنور الذي يلوح للمنافقين في جوِّ الظلام؛ لأنَّ النِّفاق ظلامٌ، والمنافقين مُظْلِمون، حتى يلتفتوا لهذا النور، فيقتبسوا منه - وهم في الدُّنيا - فيقتدوا به، فيكون منهم رجوع إلى أنفسهم، فإنَّهم إذا رجعوا إليها راجعوها، وإذا راجعوها؛ اهتزَّت نفوسُهم للحقِّ، وتهيَّأت للتَّخلّي من الباطل نفاقًا وكفرًا، والتَّحلّي بالحقِّ إيمانًا وأخلاقًا؛ فلهذا أيضًا تأخَّرَت هذه الآيةُ عن الآيات المتحدِّثة عن المنافقين.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 276.

عِلَّةُ التَّعبيرِ بلفظ القسم:

علاماتُ النِّفاق لا تكاد تُعَدُّ وتُحصَى

قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ﴾، ولم يقل: (وحلفوا)؛ إشارةً إلى أنَّ نصيبهم مِن الاستجابة لله ورسوله هو هذا القسم أو الإقسام؛ لأنَّه مأخوذٌ مِن القَسامة، وهي الأيمانُ تُقسَّمُ على أولياء المقتولِ، إذا ادَّعوا دم مقتولهم على ناسٍ اتَّهموهم به، وإشارةً إلى تكاسلهم وتباطُئِهم في دفع الشُّبْهة عن أنفسهم، وهي أنَّهم يُعرِضون عن الحكومة عند رسول الله ﷺ لأنَّ مادَّة: (قسم) تدورُ على أصلين، أحدهما تجزئةُ شيءٍ، فلو عُبِّر بالحلف، فقيل: (وحلفوا بالله) لفات ذلك كلُّهُ، ولَما أبان عن حال المنافقين.

دلالةُ صيغةِ الفعل:

المنافقون معَ ذلّ نفاقهم يشعرون بالعزِّ والرفعة

قولُه: ﴿وَأَقْسَمُواْ﴾: معطوفٌ على قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾، أو: ﴿يَتَوَلَّىٰ﴾، فكان الظاهرُ أن يقال: (ويقسمون)، ولكنْ عُدِل عنه إلى الماضي؛ تمكينًا لمعنًى تشير إليه مادَّة الكلمة، وهو التباطُؤ والتكاسل؛ المؤسَّس على ما فيها مِن معنى تجزئة الشيء، فقد دلَّت صيغة الماضي على "أنَّهم لم يسمحوا به أكثر من مرَّةٍ؛ لما يدلُّ عليه مِن زيادة الخضوع والذُلِّ"[1].

عِلَّةُ التَّعبيرِ بلفظ: ﴿جَهْدَ﴾:

ما أقبحَ المبالغةَ في الكذبِ والنفاقِ والكفرِ!

قولُه تعالى: ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾: يصوِّر حقيقةً مِن حقائق المنافقين، وهي خلوُّ نفوسهم وقلوبهم مِن الإيمان، فبقدر خلوِّها منه يكونُ بذل ما في وسعهم في سبيل إثباته؛ لأنَّهم لا يُحِسُّون بشيء مِن الصِّدق، بل عندهم كمالُ إحساسٍ بكذبهم، وببغضهم للإيمان بالله ورسوله؛ ولهذا عبَّر القرآنُ بما يصوِّر عظيم ما بذلوا مِن مشقَّة، فقد بذلوا بلسانِهم أقصى طاقتِهم وما في وسعهم؛ كي يُبرِّئوا أنفسهم مِمَّا حكَم الله عليهم به، وهو قولُه: ﴿جَهْدَ﴾، ومادَّتُه تدورُ على المشقَّة، والمشقَّةُ لا يصحبُها فعلٌ أو قولٌ ما في الوسع والإمكان، بل هي

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 299.

تقتضي بذلَ ما فوق الطاقة، وما فوق السَّعة؛ ممَّا يَشُقُّ على الإنسان، فلو قيل: (طاقة أيمانهم)، أو (سعة أيمانهم)، ونحوُ ذلك؛ لَما كان ألصق وأبرَّ بحال هؤلاء المنافقين.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمصدر:

أتعب المنافقون أنفسَهم من غير جدوى

لم يقل القرآن: (جاهدين أيمانهم)، بل عبَّر بالمصدر: ﴿جَهۡدَ﴾ الذي هو أقوى في الدَّلالة على معناه مِن غيره مِن المشتقّات، فقد تحقَّقوا بمعناهُ على أبلغ وجه وأتمِّه وأكملِه.

دلالةُ ذكرِ اليمين، وجمعِه:

بلغ المنافقونَ في شقشقةِ اللِّسان كلَّ مبلغٍ

صرَّح القرآنُ باليمين؛ ليدلَّ على إبلاغهم في الدِّفاع عن أنفسِهم باللِّسان وجمعه، فقال: ﴿أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾؛ لينبِّهَ على هذا الإبلاغ في الدِّفاع عنهم، بتكرار الأيمان، وتتابُعِها متوافقةً ومتغايرةً، على ما يُفْهِمُهُ صيغةُ الجَمعِ.

دلالةُ الإضافةِ:

إنَّـمـا جُـعـل الـلِّـسـان على الفؤاد دليلًا

في إضافة الجَهْدِ إلى الأيمان، في قوله: ﴿جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ تنبيهٌ على أنَّ صورة جَهْد أنفسِهم هي جهدُ الأيمان، وأنَّهم بالغوا في قولِها وتكرارها وتنوُّعها، فلم يقلِ القرآن: (وأقسموا باللّه جاهدين أنفسهم)، ولا: (جهدَ أنفسهم)، ولا: (جاهدين أيمانهم)، وإنَّما قال: ﴿جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾، وهو أبلغُ ممَّا سبق ذكرُه.

ثم إن كان قوله: ﴿جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ حالًا مِن ضمير: ﴿وَأَقۡسَمُواْ﴾ على تأويل المصدر باسم الفاعل، أي: جاهدين: فالتَّقدير: جاهدين أنفسهم، أي: بالغين بها أقصى الطّاقة، وهذا على طريقة التَّجريدِ، ومعنى ذلك: أنَّهم كرَّروا الأيمان، وعدَّدوا عبارتها حتى أتعبوا أنفسهم؛ ليوهِموا أنَّهم صادقون في أيمانهم، وعلى هذا الوجهِ تكون الإضافةُ على معنى: (مِن)، أي: جهدًا ناشئًا مِن أيمانهم.

وإن كان منصوبًا على المفعول المطلق الواقع بدلًا مِن فعلِه،

والتقدير: جهدوا أيمانهم جهدًا، والفعلُ المقدَّر في موضع الحال مِن ضمير: ﴿وَأَقْسَمُواْ﴾، والتقدير: أقسموا يجهدون أيمانهم جهدًا، فالإضافةُ على هذا الوجه مِن إضافة المصدر إلى مفعوله، فقد جُعِلَت الأيمان كالشخص الذي له جهدٌ، على سبيل الاستعارةِ المكنيَّةِ، ورُمِز إلى المشبَّه بهِ بما هو مِن روادفه، وهو أنَّ أحدًا يجهدُهُ، أي: يستخرجُ منه طاقته، فإنَّ كلَّ إعادةٍ لليمين هي كتكليف لليمين بعمل متكرِّر كالجهد له[1].

سرُّ الفصلِ:

فصلت جملة: ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ﴾ عن سابقتها لكمال الاتِّصال؛ لكونها مبيِّنة لجملة: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾، والمعنى: واللّه لئن أمرتنا - يا محمد - بالخروج لنخرجنَّ مع المجاهدين كما طلبت منّا، ولئن أمرتنا بالجهاد؛ جاهدنا.

أقسموا على السَّمع والطّاعة في المنشطِ والمكرهِ، وطبيعتهم الكذب

معنى اللام وإنْ:

اللام في قوله: ﴿لَئِنْ﴾ موطِّئة للقسم؛ لأنَّها وطَّأت الجواب للقسم، أي: مهَّدته، وليست جوابًا للقسم، وإنَّما الجوابُ ما يأتي بعد الشَّرط[2]، و: (إن) شرطيَّة، فعلُها قوله: ﴿أَمَرْتَهُمْ﴾، وجوابُها قولُه: ﴿لَيَخْرُجُنَّ﴾.

الاجتهادُ في الكذب والمداراة من شيم المنافقين

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ الأمر:

الأمرُ هو طلب الفعلِ على جهة الاستعلاء، ويدلُّ الأمر على الوجوب وعلى غيره بدلالة القرينةِ، وهو من الأعلى إلى الأدنى، وإن كان من الأدنى إلى الأعلى؛ فهو الدُّعاءُ، وإن كان من المساوي؛ فهو التماسٌ، والمرادُ بالأمر في قوله: ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ﴾: الأمرُ المقابلُ للنَّهي، أي: أمرهم بالخروج للجهاد والقتال معه، وإنَّما عُبِّرَ بالأمر؛ تناسُبًا

المبالغةُ في الكذب مِن سيما المنافقين

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 277 - 278.
(2) الزركشي، البرهان: 4/ 338.

مع ذِكر حكومة رسول الله ﷺ في سياق السباق القريب: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ﴾، والحاكمُ مِن شأنه الأمرُ والنَّهيُ، فيدخلُ في الأمر هنا كلُّ مأمور به، حقيرًا كان أو عظيمًا، وهذا يكشف عن مبالغتهم في تقرير كذبهم.

دلالةُ حذفِ متعلّق الأمر والخروج:

العمومُ مطيَّةُ المبالغة

أكَّد النَّظمُ القرآنيُّ دلالةَ التَّعبير بالأمر في قوله: ﴿أَمَرۡتَهُمۡ﴾؛ بحذف متعلِّقه للعموم، أي: لئن أمرتهم بأيِّ شيء، فحذْفُهُ للعموم هو الألصق بمادَّة: (أمر) في قوله: ﴿أَمَرۡتَهُمۡ﴾، والإبلاغُ بالحذف نراه أيضًا في قوله: ﴿لَيَخۡرُجُنَّۖ﴾، أي: ليخرجنَّ على كلِّ حال، والضَّمير يعود على متعلِّق: ﴿أَمَرۡتَهُمۡ﴾ المحذوف، وهذا مِن الحذف المؤسَّس على حذفٍ، فيدخلُ في المتعلِّق المحذوف معهما: الدور، والبلاد، والأموال، وكلُّ حال يكونون فيه وعليه.

معنى اللّامِ، وعلَّةُ التعبير بالخروج:

أنفسُهم أحبُّ إليهم من المال أفيجودون بها طاعة لله ورسوله؟

اللام في قوله: ﴿لَيَخۡرُجُنَّۖ﴾ واقعةٌ في جواب القسم، والمعنى: "لأقسموا بطريقِ حكايةِ فعلِهم، لا حكايةِ قولِهم"[1]، وكان مِن الممكن أن يقول القرآن: ليفعلنَّ، أو: ليصنعنَّ، أو: ليعملنَّ، ونحوَ ذلك، ولكنَّه كشَف بدقَّة تعبيره: ﴿لَيَخۡرُجُنَّۖ﴾ عن ادِّعاء هؤلاء المنافقين كمالَ الاستجابة لله ورسوله، وكمالَ الإقبالِ بكلِّيَّاتهم على رسوله ﷺ فإنَّهم بمجرَّد أمرِهم مِن قِبَلِه ﷺ يخرجون مِن الحال الذي يكونونَ فيه إلى حالٍ آخَر مغايرٍ له، والخروجُ على هذا مستعار للتَّرك التّام، والقرينة أنَّ الخروج الحسّيَّ الذي هو مقابل الدخول الحسّيِّ ضيّق المتعلِّقات، لكنَّ التَّرك واسعُ المتعلَّقات، والمعنى: ليتركن ما هم مُتلبِّسون به كائنًا ما كان إلى ما يأمرهم به الرَّسول ﷺ وذلك أنَّهم

(1) أبو السعود، تفسير أبي السعود: 6/ 188.

كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: أينما كنتَ؛ نكنْ معك، إن خرجتَ؛ خرجنا، وإن أقمت؛ أقمنا، وإن أمرتنا بالجهاد؛ جاهدنا[1].

والمستعارُ أبلغُ مِن المستعار له؛ لأنَّه لا يكون إلّا حسّيًّا، والمستعار له يكون حسّيًّا ومعنويًّا، ففي المجاز تصويرٌ للمعنويِّ والمعقول بصورة الحسّيِّ، فترْكُ المنافقين لأمر معنويٍّ كتركهم لأمر حسّيٍّ، فهم يعالجون الترك، ويجتهدون في تنفيذه حقيقةً وأداءً؛ استجابةً لله ورسوله كما يزعمون، ويدَّعون.

وكونُ الخروج في قوله: ﴿لَيَخۡرُجُنَّۖ﴾ مجازًا، مؤسَّسٌ على كون متعلَّقه المحذوف عامًّا، وكونُ متعلَّقه المحذوف عامًّا مؤسَّسٌ على كون متعلق قوله: ﴿أَمَرۡتَهُمۡ﴾ عامًّا، وكونُه عامًّا مُؤسَّسٌ على التعبير بمادَّة الفعل: ﴿أَمَرۡتَهُمۡ﴾، وكلُّ أولئك مطابقٌ لحال المنافقين، مِن الشَّطط والمبالغات التي لا تتناهَى.

علَّةُ التوكيدِ:

لكمال إحساس المنافقين بكذبهم وعدم وفائهم بشيءٍ مع كلِّ تلك المبالغات، التي دلَّت عليها تعبيرات القرآن مِن حيث مادَّتُها، وحذفُها وغيرُ ذلك؛ أكَّدوا ادِّعاءَهم الترك الحقيقي والخروج المجازي، في قوله: ﴿لَيَخۡرُجُنَّۖ﴾، بنون التوكيد الثقيلة المشدَّدة المفتوحة، فهذا التَّوكيد صورةُ عدم انفعالهم بشيء مِمَّا ذكروا، وإنَّما هو مجرَّد شقشقة لسان.

عـدمُ الانـفـعـالِ بالمعاني مِن شأن المنافقين

سرُّ الفصلِ:

فُصِلت جملة: ﴿قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ﴾ عمّا سبقها؛ لشبه كمال الاتِّصال، والتقدير: فماذا كان ردُّه ﷺ أو: ماذا تفعل في اختبارهم؟ فأُمِرَ أن يجيبهم بقوله: ﴿قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ﴾، فجاء هذا ردًّا عليهم، وزجرًا لهم عن التَّفوُّه بها، وإظهارًا لعدم القبول؛ لكونهم كاذبين فيها: ﴿لَّا تُقۡسِمُواْۖ﴾، أي: على ما يظهره كلامُكم من الطّاعة[2].

هـذهِ الجملةُ بيـانٌ لموقف الحاكم البشري منهم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 277.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 277.

سرُّ ذِكر الأمر: ﴿قُل﴾:

مقامُ رسول الله ﷺ رفيع عند ربِّه

كان مِن الممكن أن يقول القرآن: ﴿لَّا تُقۡسِمُواْ﴾، بغياب الأمر: ﴿قُل﴾، لكن الرَّسول ﷺ له حضورٌ قويٌّ في الحديث عن المنافقين، فهو الحاكم الذي يُدْعَى المنافقون إلى الاحتكام إليه، وهو الذي تولَّى المنافقون، وأعرضوا عنه، فأجرَى الله على لسانه أمرَهُم بذلك: ﴿قُل لَّا تُقۡسِمُواْ طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ﴾؛ تسليةً له ﷺ وتمكينًا لحكمه ﷺ فيهم وعليهم، فالحاكمُ خبيرٌ بالمحكوم عليه، ورفعًا له ﷺ عليهم، وقد أرادوا خفضه، بإعراضهم عنه.

ثمَّ في ذكره أيضًا إشارةٌ إلى أنَّ حقيقة حال المنافقين لا تخفَى على المخلوق - وهو هنا أشرفُهم (ﷺ) - فهل تخفَى على خالقهم؟ ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾ [الملك:14]، وفي كون المأمورِ الرسولَ ﷺ تنبيهٌ على أنَّ للمنافقين مِن الأحوال الخفيَّة ما لا يدركه إلّا هو ﷺ ولذلك كان حكَمًا بينهم وبين غيرهم.

الغرضُ من النَّهي:

بالغوا، وعمَّموا في القَسَم، فكان نهيهم عن القسم سخيًّا

قوله تعالى: ﴿لَّا تُقۡسِمُواْ﴾ من الكلام ذي اللَّفظ القليل والمعنى الكثير؛ فإنَّه كَلامٌ موَجَّهٌ؛ لِأَنَّ نَهْيَهُم عَنْ أَنْ يُقْسِموا بَعْدَ أَنْ صَدَرَ القَسَمُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكونَ نَهْيًا عَنْ إعادَتِهِ؛ لِأَنَّهُم كانوا بِصَدَدِ إعادَتِهِ، بِمَعْنَى: لا حاجَةَ بِكُم إلَى تَأْكِيدِ القَسَمِ، أَيْ: فإنَّ التَّأْكِيدَ بِمَنْزِلَةِ المُؤَكَّدِ في كَوْنِهِ كَذِبًا، ويُحْتَمَلُ أَنْ يَكونَ النَّهْيُ مُسْتَعْمَلًا في مَعْنَى عَدَمِ المُطالَبَةِ بِالقَسَمِ، أَيْ: ما كانَ لَكُم أَنْ تُقْسِموا؛ إذْ لا حاجَةَ إلَى القَسَمِ؛ لِعَدَمِ الشَّكِّ في أَمرِكُم، ويُحْتَمَلُ أَنْ يَكونَ النَّهْيُ مُسْتَعْمَلًا في التَّسْوِيَةِ، مثل: ﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ [الطور:16]، ويُحْتَمَلُ أَنْ يَكونَ النَّهْيُ مُسْتَعْمَلًا في حَقِيقَتِهِ، والمُقْسَمُ عليه مَحْذوفٌ، أَيْ: لا تُقْسِموا على الخُروجِ مِنْ دِيارِكُم وأَموالِكُم، فإنَّ الله لا يُكَلِّفُكُم

بِذَلِكَ، ومَقامُ مواجهَة نفاقِهم بالكشف والتَّصحيح يَقْتَضي أَنْ تَكونَ هَذِهِ الاِحْتِمالاتُ مَقْصودَةً[1].

سرُّ الفصلِ:

فُصِلت جملة: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ عمَّا قبلها؛ لأنها واقعة تعليلًا لما قبلها على جهة الاستئناف البياني، فهي جوابٌ عن السؤال عن علَّة النَّهي في قوله: ﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا﴾.

إنَّما تظهر الحقائق بالمواجهة

علَّةُ اختصاص الطاعةِ بالذِّكْرِ:

خُصَّتِ الطاعة بالذِّكْرِ؛ لأنَّها مجلى الإيمان على ألسنتهم هم، فقد قالوا من قبل: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾، فالطاعةُ صورةُ هذا الإيمان الكامل، فعُبِّر بها؛ ليرجع عجُز الكلام إلى صدره.

الطّاعة مظهرُ الإيمان

دلالةُ تنكيرِ الطاعةِ:

لَمَّا أطلقوا الطاعة في قولهم: ﴿وَأَطَعْنَا﴾، فحذفوا المفعول، وهو الله ورسوله، وكان ظاهرُ الكلام عموم متعلِّق الطاعة، أي: في كلِّ شيء، كالعموم الذي في قوله: ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾؛ نكَّر الطاعة هنا، فقال: ﴿طَاعَةٌ﴾؛ لأنَّ المقصود به نوعُ الطاعة، وليست طاعةً معيَّنةً، فهو من باب: تمرةٌ خيرٌ مِن جرادةٍ[2].

كلُّ طاعةٍ للمنافقين معروفة

علَّةُ التَّعبيرِ بلفظ: ﴿مَّعْرُوفَةٌ﴾:

قد تأسَّس على النَّهي عن القَسَم على أيِّ توجيهٍ له مِن المعنى: وصفُ الطاعة بأنَّها معروفةٌ، ومِن العجيب أنَّ القرآن الحكيم قد واجه نفاق المنافقين ومبالغاتهم التي يتركَّبُ بعضُها فوق بعضٍ بجملة موجزة جدًّا، فهدَم كلَّ ادعاءاتهم بكلمة: ﴿مَّعْرُوفَةٌ﴾، أي: لا تحتاج إلى أن تخفوها، فضلًا عن أن تحتشدوا لذلك بتلك المبالغات التي شقَّت عليكم.

في الأمر بـ (قل) بذرةُ وصفِ طاعتهم بأنَّها معروفةٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 287.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 279.

وفي الوصف بها أيضًا إشارةٌ إلى أنَّه مِن الممكن أن يتمكَّن مِن معرفة طاعتهم مَن يريد ذلك، وأيضًا تأسَّسَ التَّعبيرُ بـ: ﴿مَّعۡرُوفَةٞۚ﴾ على كون طاعتهم طاعةً نفاقيَّةً مذمومةً، فكونُها كذلك معروف مشهور لكلِّ أحدٍ[1].

إيجاز القصر ووجهُه:

هدمُ الطاعةِ هدمٌ للإيمان؛ لأنَّها صورة الإيمان

هذه الجملةُ كلامٌ أُرْسِل مثَلًا، وتحته معانٍ جمَّةٌ، تختلف باختلاف الاحتمالات المتقدِّمة في النهي في قوله: ﴿لَا تُقۡسِمُواْۖ﴾؛ وهي مبنيَّة على أن قوله: ﴿طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ﴾ خبر مبتدأ محذوف، والتقدير – مثلًا –: طاعتكم طاعة معروفة، على سبيل ذمٍّ طاعتهم النفاقيَّة، أي: لا تقسموا على ما تدعون من الطاعة؛ لأنَّ طاعتكم طاعةٌ نفاقية واقعة باللِّسان فقط مِن غير مواطأةٍ مِن القلب.

فعلى احتمال أن يكونَ النَّهي عن القسَم مستعملًا في النَّهي عن تكريرِه يكونُ المعنى مِن قبيل التَّهكُّم، أي: لا حُرْمة للقسَم، فلا تُعيدوه؛ فطاعتكم معروفة، أي: معروف وهَنُها وانتفاؤُها.

وعلى احتمال استعمال النَّهي في عدم المطالبة باليمين يكون المعنى: لماذا تُقسمون؟ أَفَأَنا أشكُّ في حالكم؟ فإنَّ طاعتكم معروفةٌ عندي، أي: أعرف عدم وقوعها، والكلامُ تهكُّمٌ أيضًا.

وعلى احتمال استعمال النَّهي في التسوية، فالمعنى: قسَمُكم ونفيُه سواءٌ؛ لأنَّ أيمانكم فاجرةٌ، وطاعتكم معروفة.

وإن كان النَّهيُ مستعملًا في حقيقته؛ فالمعنى: لا تُقسموا هذا القَسَم، أي: على الخروج مِن ديارِكم وأموالِكم؛ لأنَّ الله لا يُكلِّفُكم الطاعةَ إلّا في معروف، فيكونُ وصف: ﴿مَّعۡرُوفَةٞۚ﴾ مشتقًّا من العرفان، أي: عدم النُّكران، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ﴾ [الممتحنة:12].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 132.

وحملُ الطاعة في هذه الجملة على الطاعة الحقيقية، بتقدير ما يناسبها مِن مبتدأ أو خبر على قراءة الرفع المتواترة، أو فعلٍ على قراءة النصب غير المتواترة، نحو: الذي يُطلَبُ منكم طاعةٌ معروفةٌ حقيقيَّةٌ، لا نفاقيَّةٌ، أو طاعةٌ معروفةٌ أمثَلُ، أو: ليكن طاعةً معروفةً، أو أطيعوا طاعةً معروفةً: مِمَّا لا يُساعِدُ عليه المقامُ[1].

دلالةُ حذفِ المبتدأ:

حُذِفَ المبتدأُ في قوله: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ - أي: طاعتكم طاعة معروفة - دلالةً على كمال احتقارِه وضعفِه وبطلانِه؛ لأنَّ أصلَ تلك المعاني المقدَّرة حاصلٌ بالمعنى الظاهر للجملة وسياقها.

مِـثْـلُ طـاعـةِ المنافقين مردودةٌ على أهْلِها

سرُّ الفصلِ:

فُصِلَت جملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ عمَّا قبلها مِن مجموع الآية الذي هو كشفٌ وفضح لنيات المنافقين وخفاياهم؛ لأنَّها تعليلٌ له، على سبيل الاستئنافِ البيانيِّ، على تقدير أنَّ أحدًا سأل عن علَّة فضيحتِهم وكشف حقيقة أمرهم، أو عمَّن قدر - ويقدر - على بيانِ حالِهم ذلك البيان، فكان الجواب أن يعلموا أنَّ اللّٰه خبيرٌ بما يعملون مِن الأعمال الظاهرة والباطنةِ؛ لعلَّهم يراجعون أنفسَهم، فيرجعون عمَّا هم فيه.

هـذه الجـملـةُ تُحقِّق معنَى ما قبلَها، وتُضيف إليه جديدًا مِن حَتْميَّة الجزاءِ

ومعنى هذه الجملة لازم لمعنى قوله: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾، ولمعنى قوله: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾، وكلٌّ منهما يُنْتِجه، فكانت هذه الفاصلة مؤكِّدةً لما قبلها، فغابت الواوُ مِن قبلها؛ لما بينهما مِن كمال الاتِّصال.

غرضُ التَّوكيدِ بأكثرَ مِن مؤكِّدٍ متنوِّعٍ:

مِن أجلِ ما ارتكبَهُ المنافقون مِن مبالغاتٍ في تغطية مخالفاتهم الظاهرة، مِن الأكاذيب المحقَّقة بالأيمان الفاجرة وغيرها، والباطنة

تـوكـيـدُ الـكـلامِ بقدر مبالغتهم فـي الـكـذب والادِّعاء

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 132، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 279.

مِمَّا يُضْمِرونه في قلوبهم من الكفر والنِّفاق والعزيمة القويَّة على مُخادعة المؤمنين؛ نزَّلَهُم القرآنُ منزلةَ مَن ينكر مضمون الخبرِ جملةً وتفصيلًا، فأكَّدَه لهم؛ ليقرِّره في نفوسهم بقوَّة، وليلفتهم إلى عظيم قيمته بالنِّسبة لهم، وذلك بحرف التوكيد والنَّصب: ﴿إِنَّ﴾، وباسميَّةِ الجملةِ، وبالتعبير باسم الجلالة: ﴿ٱللَّهَ﴾ المسيطر على الأسماء كلِّها، فهو الاسم الجامعُ لجميع الأسماءِ والصفات، ما علمنا منها، وما لم نعلم؛ لأنَّ كمالاته تعالى لا تتناهَى، فعُبِّر به؛ ليلفت إلى معنى إحاطته بكلِّ شيءٍ علمًا وقدرة؛ لأنَّ العلم ينشأ عنه الحساب، ولأنَّ القدرة ينشأ عنها المجازاةُ، وبمعنى: ﴿خَبِيرٌ﴾ دون: (عليم)؛ لأنَّه مأخوذٌ مِن: خبرتُ الشَّيءَ؛ إذا عرفتَ حقيقةَ خبرِه، فالتَّعبير بـ: ﴿خَبِيرٌ﴾ فيه معنى العلم وزيادة، ففيه قوَّةٌ ومبالغة في الوصف، وهذا يناسب المعنى المراد من أنَّ الله تعالى خبيرٌ بمثل نيات المنافقين، وبما طويَت عليه نفوسُهم، وبصيغة فعيل في قوله: ﴿خَبِيرٌ﴾، التي تصوِّر قوَّة معنى الكلمة، فالإحاطة بجميع أحوالهم ليس فوقها إحاطةٌ.

معنى (ما)، ودلالة التعبير بها:

(ما) في قوله: ﴿خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾: اسمٌ موصول بمعنى الذي، يستوي فيه التَّذكير والتَّأنيث، والإفرادُ والتَّثنية والجمع، وهو اسمٌ مبهمٌ في غاية الإبهام؛ حتّى إنَّه يقع على المعدوم، ويقع على مَن يعقل عند اختلاطهِ بما لا يعقل تغليبًا، ويأتي لأنواع مَن يعقل، وصلته تزيل إبهامه.

سبحان مَن لا تخفَى عليه خافية!

وفي إبهامهِ مع مدِّ الألف، فيه تصويرٌ لعموم ما يأتيه المنافقون مِن أعمال، فيكون متناغيًا بقوَّة مع صيغة: ﴿خَبِيرٌ﴾، والإبهام في: (ما) يرشِّح على صلته: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾، وهذا ألصقُ بأحوال المنافقين، والمعنى: إنَّ الله خبير بالذي تعملونه، فيجازيكم عليه، وصلةُ الموصول في محلِّ جرٍّ متعلِّقة بقوله: ﴿خَبِيرٌ﴾.

عِلَّةُ التَّعبيرِ بلفظ العمل مادةً وصيغةً:

عُبِّرَ بالعمل في قوله: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾؛ إشارةً إلى كلِّ قول وفعل يكون منهم؛ تناسُبًا مع مقام الإبلاغ في ترهيب المنافقين، ومع اسم الجلالة، وصيغة: ﴿خَبِيرُۢ﴾، ولفظ: (ما)؛ إذ العمل هو إيجاد الأثرِ في الشَّيء، يقال: فلان يعمل الطّينَ خزفًا، ويعمل الخوصَ زنبيلًا، والأديم سقاء، ولا يقال: يفعل ذلك؛ لأنَّ فعل ذلك الشَّيء هو إيجاده عن سبب، وقد يُلاحظُ فيه الاحتذاء على مِثال سابق، وقال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ٩٦﴾ [الصافات: 96]، أي: خلقكم، وخلق ما تؤثرون فيه بنحتكم إيّاه، أو صوغكم له، ولا يقال: (تصنعون)؛ لأنَّ الصُّنع ترتيبُ العمل وإحكامه على ما تقدَّم علم به، وبما يوصل إلى المراد منه، ولم يقل: (تجعلون)؛ لأنَّ الجعلَ تغييرُ صورة الشَّيء بإيجاد الأثر فيه، وبغير ذلك"[1]، فصار التَّعبيرُ بالعمل أشملَ وأدقَّ من غيره، ويحقِّقُهُ نظمُه مضارعًا؛ فعمومُ العمل وكثرتُه تقتضي التجدُّد والاستمرار.

في اللَّفت إلى عموم الأعمال والأحوال كمالُ ترهيبٍ

دلالةُ حذفِ المفعول:

يؤكِّدُ دلالةَ التَّعبيرِ بالعمل مادةً وصيغةً حذْفُ متعلِّق الفعل: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾؛ على تنزيل المتعدي منزلة اللازم؛ تنبيهًا على أنَّ الغرض مجرَّدُ إثبات الفعل لفاعله؛ دون نظر إلى مفعول، أو على أنَّ الحذفَ للعموم، وفي الحذف إبلاغٌ في إثبات معنى الجملة، فلكمال علمِهِ به لا يحتاج إلى ذكره في الكلام.

عِلمُ الله هو العلم الشامل

بلاغةُ الكناية:

في سياق مواجهة المنافقين، وفضْحِ نفاقِهم، وتهديدهم على ذلك؛ يأتي وعيدُهم بأنَّه تعالى يجازيهم على جميع أعمالِهم السيِّئة التي منها نفاقهم، فيكنّي القرآن عن ذلك بمضمون قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾؛ إذ هذه المجازاةُ تلزم من كونه سبحانه خبيرًا بما

لا تخلو جملةٌ قرآنيَّةٌ مِن ترغيب وترهيب

(1) أبو هلال العسكري، الفروق اللُّغويّة، ص: 140، 141.

يجدِّدون مِن أعمال، وفي أسلوب المكنّى به دليلٌ على حصول المكنّى عنه - لا محالةَ - مِن اسم الجلالة: ﴿ٱللَّهَ﴾ الدال على الألوهيَّة الحقَّة العادلة التي ما خلقت شيئًا عبثًا، ومِن معنى: ﴿خَبِيرُۢ﴾.

دلالةُ جريانِ معنى الجملةِ على نسقِ الخطابِ:

سـبـحـان مـن يرغب ويرهب في وقت واحد!

جرى معنى الجملة على جهة خطاب المنافقين، بأن قيل: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ دون: (يعملون)؛ وفي هذا بثُّ روح التهديد والترهيب فيهم مِن جهةٍ؛ إذ يواجههم سبحانه بأنَّه محيطٌ بأعمالهم، وأنَّه سيجازيهم عليها، وروح التَّرغيب والوعد بالقَبولِ؛ إن رجعوا؛ لأنَّ في الخطاب بالإقبال عليهم إحسانًا إليهم.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القسم والحلف:

القسمُ أبلغُ من الحلف

تدور مادَّةُ القسم على أصلين: على جمال وحُسْنٍ، وعلى تجزئة شيء، والحلفُ تدور مادَّته على أصلٍ واحد: وهو الملازمة، ففُرِّق بينهما بأنَّ القسم أبلغ من الحلف؛ لأنَّ معنى قولنا: (أقسم بالله): أنَّه صار ذا قسم بالله، والقسم النَّصيب، والمراد أنَّ الذي أقسم عليه من المال وغيره قد أحرزه، ودفع عنه الخصم بالله، وأنَّ الحلف من قولك: (سيف حليف)، أي: قاطع ماضٍ، فإذا قلت: (حلف بالله)؛ فكأنَّك قلتَ: قطعَ المخاصمة بالله، فالأوَّل أبلغُ؛ لأنَّهُ يتضمَّن معنى الآخر، مع دفع الخصم، ففيه معنيان، وقولنا: (حلف) يفيد معنًى واحدًا: وهو قطعُ المخاصمة فقط، وذلك أنَّ من أحرز الشَّيء باستحقاقٍ في الظاهر؛ فلا خصومةَ بينَهُ وبين أحدٍ فيه، وليس كلٌّ من دفع الخصومةَ في الشَّيء؛ فقد أحرزَهُ، واليمين اسمٌ للقسم مستعارٌ، وذلك أنَّهم كانوا إذا تقاسموا على شيء؛ تصافقوا بأيمانهم، ثم كَثُرَ ذلك حتى سُمّي القسم يمينًا[1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قسم)، وأبو هلال العسكري، الفروق اللُّغويّة، ص: 429، والراغب، المفردات: (قسم).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والثلاثون،
سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والثلاثون، سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 37 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-79-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 37 : المجلد السابع والثلاثون، سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-79-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8644972 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»